المورد

مجلة تراثية فصلية محكمة

ملاحظات حول الخزائن المخطوطة

في تونس والجزائر والمغرب

عبدالكريم الدجيلي

في عام ١٩٧٢ سافرت من (بغداد) قاصدا تونس فالجزائرثم المغرب للدعوة المشكورة الموجهة لي من مؤسسة (كلبنكيان) ـ القسم الثقافي منها عن طريق وزارة التربية العراقية الموقرة ،بقصد الاطلاع على المخطوطات العربية والاسلامية في تلك الاصقاع .

دار الكتب الوطنية في تونس

تجمعت في الدار الوطنية في تونس الكتب ـ المخطوطة وغير المخطوطة ـ من الروافد التالية :

١ ـ المكتبة (العبدلية) ، او (الصادقية) ، نسبة لابي عبدالله محمد بن الحسن ابن مسعود . وكانت هذه المكتبة، في الرواق الشرقي من جامع « الزيتونة » . قيل عنها بان فيها عشرة آلاف مجلد من الكتب اتت عليها الحملة الاسبانية .

وفي مدة الامير (محمد الصادق) باي تونس سعى الوزير خيرالدين باشا الى جمع ما بقي من مكتبات المدارس الدينية والجوامع فوضعها في هذه المكتبة . كما انه تبرع لها كتبا ثمينة من خزانته الخاصة . وقد ساهم ذو المال ومن يعنى بالكتب في التبرع لها . فمن هنا نسبت اليه وسميت ب « الصادقية ».

وفي (الخمسينات) اضيفت الى هذه المكتبة مكتبة (آل النجاد) كانت تحوي نوادر المخطوطات والكتب الثمينة . في اعداد وفيرة . ثم اضيفت اليها مكبة (آل رضوان) التي تمتاز بكتب العلوم الرياضية .

٢ ـ المكتبة (الاحمدية) نسبة الى المشير (احمد باشا) الحسيني الاول الذي اهدى جامع (الزيتونة) عشرين خزانة مثقلة بنوادر الكتب وهي من بقايا خزانة الباشا (بيادو) . ومن كتب الوزير (حسين خوجه) التي باعها عليه دائنوه . كما الحقت الى هذه المكتبة ما بيع من كتب الشيخ ابراهيم (الرياحي) . والحق بها ايضا من كتب الاعيان والوزراء وكتب الوزير (مصطفى) حتى بلغ رقمها التعدادي عاليا (٦٠٠٠٠) الف كتاب على ما قيل لي . هي الآن رهن الدار الوطنية في مدينة تونس العاصمة . وفي سوق العطارين يختلف اليها المتتبعون والباحثون من مختلف الاتجاهات والجنسيات .

٣ ـ المكتبة الوطنية . انشئت حديثا . وبخاصة قسم المخطوطات منها . وقد تمت من المشتريات . وأخيرا أوصى المرحوم حسن حسني عبدالوهاب بان تهدى مكتبته الثمينة الى المكتبة الوطنية . شريطة ان يخصص لها ركن فيها .

وفي عام ١٩٦٧م تقرر جمع المخطوطات التي في (صفاقس) وبقايا الكتب المخطوطة في مدينة (القيروان) وبقية المكتبات الاخر المودعة في الزوايا والجوامع في الدار الوطنية . وقد بلغ رقمها على ما اخبرت عشرين الف مخطوطة .

تقع دار الكتب الوطنية في سوق (العطارين) التاريخي بالقرب من جامع (الزيتونة) .

وهذه الدار عبارة عن قلعة عسكرية بنيت في العهد التركي أسسها باي تونس عام ١٨١٣م . وفي عام ١٩٤١ نظمت هذه المكتبة من جديد واصبحت تحتوي على (١٥) قاعة ، وقد خصص للمطالعة منها ثنتان الا انهما لا تتسعان للاعداد الكبيرة التي تختلف على المكتبة من الباحثين والدارسين .

ونظرا لضيق هذا المبنى ، وتطور أقسام المكتبة وعدم ملائمتها للدور الخطير الذي تلعبه المكتبات في العصر الحديث فقد أعد منهج لبناء مكتبة جديدة تلائم مقتضيات العصر .

لم أجد في الدار الوطنية ما يلفت نظري من المخطوطات ـ حسب منهجي وتتبعي ـ سوى مخطوطة نادرة تعتبر من امهات التراث الادبي ووثيقة تاريخية بالغة الاهمية وهي « شرح اختيار المفضل الضبي » بخط مؤلفها العلامة يحيى بن علي الخطيب (التبريزي) . وقد كتبه (ببغداد) دار السلام . كما هو مسجل في الصفحة الاولى من هذه المخطوطة ما نصه : « كتب يحيى بن علي الخطيب التبريزي سنة ست وثمانين واربع مئة بمدينة السلام(١) » .

ان اغلب ما وجدت في دار الكتب الوطنية مكرر ومطبوع . واني لمسجل بعض ما اطلعت عليه منها . كما ان المرحوم العلامة الشيخ محمد طاهر بن عاشور(٢) اخبرني بان النادر في هذه

---

(١) أبو زكريا يحيى الشيباني التبريزي المتوفى ببغداد عام ٥٠٢هـ وعدد أوراقها (٢٦٢) ورقمها التسلسلي في المكتبة (٥٣١) وعلى الورقة الاولى قد سطر مايلي : (قد فرغ من كتبه لنفسه عبدالعزيز بن جرير المقلاني سنة ست وثمانين واربع مئة بمدينة السلام حامدا لله ، داعيا لمصنفه حرسه الله) وقيل لي ولم أره ان المجمع العلمي بدمشق قام بطبعه بعدة أجزاء .

(٢) محمد طاهر بن عاشور التونسي الاندلسي المتوفى عام ١٩٧٣ عن عمر يناهز التسعين . ومن طريف ما اخبرني عند زيارتي له عام ١٩٧٢ بانه يحتفظ بمفتاح بيتهم في الاندلس متوارثا . وقد حقق عدة كتب منها كتاب

المكتبة من المخطوطات نادر . وان الايدي الاجنبية امتدت لهذا البلد فسرقت اغلب مافيه من ثمين وهي لم تخلف الا اللعنة وسوء الدار . وفي هذه المكتبة :

١ ـ (بلوغ الاداب في لطائف العتاب) بخط مغربي . نسخه محمد الشريف عام ١١٤٣هـ ومؤلفه محمد بن احمد الانباري .

٢ ـ (تشحيذ الافهام بما يحسن من الابهام) بخط مؤلفه الشيخ ابراهيم بن احمد .

٣ ـ (البيان في شرح الديوان) لعبدالله (ابو البقاء) العكبري المتوفى عام ٦١٦هـ وقد نسخ عام ٧٦٦هـ ومزية هذه المخطوطة قدمها ، كما ان فيها بعض المغايرة عما في المطبوع

٤ ـ تخميس قصيدة علي بن زريق(٣) .

٥ ـ (خمرة الارتياح المغنية عن الراح) للقاسم بن محمد الحاتمي(٤) .

٦ ـ ديوان (الجواد) بن الرضا البغدادي بقلم ابي بكر بن عمر الورغي(٥) .

٧ ـ (الذخائر والاعلاق ، في شرح ترجمان الاشواق) لمحمد ابن علي بن عربي(٦) .

٨ ـ (ري الاوام ، ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام) لعبدالله بن احمد الزحالي . نسخ عام ١١٥٢هـ .

٩ ـ (الكتيبة الكامنة ، فيمن لقيناهم من شعراء المئة الثامنة) لمحمد بن الخطيب(٧) .

١٠ ـ (المختار من شعر شعراء الاندلس) لمؤلفه تاج الرآسة علي بن المنجب بن سليمان ، المعروف بـ (ابن الصيرفي)(٨) المتوفى عام ٥٤٢هـ على احسن الروايات .

وهذه المخطوطة من مكتبة حسن حسني عبدالوهاب بخط الشيخ عبدالله الدنوشري . وموضوعها منتخبات من نظم ونثر لمشاهير الاندلس وتراجم حياتهم الادبية . وقد صنف هذا الكتاب قبل ان يؤلف ابن بسام (الذخيرة) . وقد صورته واهديت منه نسخة للمجمع العراقي لمن يرغب بتحقيقه .

١١ ـ (الدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة) لابن القطاع(٩) . ومن هذا الكتاب نسخة اخرى كانت في مكتبة (الزيتونة) .

١٢ ـ (صحائف الاسفار ، ولطائف الاخبار في وقائع وهران بين المسلمين والكفار) . لمؤلفه محمد بن راس بن احمد. والكتاب بخط محمد عبدالقادر . فرغ من نسخه عام ١٣٠٦هـ . وهو كبير الحجم ، بخط مغربي يقع في ٣٦٦ ورقة في جزأين بمجلد واحد . غير مطبوع .

١٣ ـ (اهداء الامراء في تاريخ الشعراء) لابراهيم القرطبي . غير مطبوع حسب علمي .

١٤ ـ (مراتع الغزلان في وصف الحسان من الغلمان) للعلامة أبي عبدالله محمد بن حسن النواجي(١٠) الشافعي . والكتاب بخط مشرقي . وعدد أوراقه ١٥٨ ورقة . وكانت هذه النسخة في المكتبة (الاحمدية) .

ولهذه المخطوطة نسختان في مكتبة (الاسكوريال) اطلعت عليهما . الاولى مؤرخة عام ٨٦٨هـ نقلت عن نسخة المؤلف ، بخط القاضي صلاح‌الدين محمد خليل الحنفي الصالحي .

والثانية مؤرخة عام ٩٧٨هـ بخط صلاح‌الدين الخطيب . صورتها واهديت منها صورة للمجمع العلمي العراقي .

١٥ ـ ديوان (السوس)(١١) محمد بن احمد بن علي . بخط الشاعر ، غير مطبوع .

(الواضح في مشكلات المتنبي) لابي القاسم الاصفهاني وقد طبع من هذا الكتاب مئتا نسخة . وكانت هذه النسخة في جامع (الزيتونة) .

(٣) أبو الحسن علي بن زريق البغدادي على ما ذكره جرجي زيدان في آداب اللغة العربية . أو محمد بن زريق على ما ذكره انوار الربيع ، شاعر مجهول ، اشتهر بهذه القصيدة . كان كاتبا ببغداد في حدود ٤٢٠هـ رحل الى الاندلس رجاء الصله ، فحين اعطاه ابو عبدالرحمن النزر من المال شق عليه فاعتل ومات وقد نظم هذه القصيدة العينية يصف فيها حاله ونزوحه وندمه وقد وجدت تحت وسادته على ما قيل .

وقد خمسها علي بن ناصر المتوفى عام ٨١٦هـ . كما خمسها لطفي افندي ابو بكر . ولا نعلم لاي منهما هذا التخميس . وأورد صاحب (اليتيمة) اربعة أبيات نسبها للوأواء الدمشقي .

(٤) للحاتمي رسالتان :
١ ـ (الموضحة في مساوىء شعر المتنبي) .
٢ ـ الرسالة الحاتمية ، أو (جبهة الادب) . وتحمل أيضا اسم (مناقل المتنبي) . ولم يذكر أحد من مؤرخي الادب ان للحاتمي رسالة ثالثة تسمى (خمرة الارتياح) . ولعل هذا الكتاب لمؤلف آخر اشترك بهذا اللقب. فهذا الكتاب للقاسم بن محمد. بينما القمي في الكنى يذكر اسم محمد بن الحسن ابن المظفر ولعل هذا الكتاب لمحي الدين بن عربي واسمه محمد بن علي الحاتمي الا انه لم يذكر بين مؤلفات ابن عربي .

(٥) لم أهتد لمعرفة هذا الشاعر من المراجع التي بين يدي .

(٦) هذه الكنية يشترك فيها عدة علماء . محي‌الدين بن عربي. والقاضي ابوبكر محمد الاندلسي . وابو حامد الغزالي وغيرهم من العلماء .

(٧) المشهور بلسان الدين بن الخطيب المتوفى خنقا بتهمة الزندقة عام ٧٧٦هـ صاحب (الاحاطة) و (نفاضة الجراب) ، و (كناسة الدكان) .

(٨) لابن الصيرفي (الاشارة فيمن نال الوزارة) و (رد المظالم) . و (منائح القرائح) . و (عمدة المحادثة) . و (عقائل الفضائل) . و (هدية العارفين) . و (لمح الملح) منه نسخة في معهد احياء المخطوطات العربية بالقاهرة مصورة عن مكتبة محمد الفاتح باسطنبول وللشيخ علي الوراق الحظيري كتاب أدبي اسمه (لمح الملح) رايت منه نسخة بمكتبة الاسكوريال عند زيارتي لها عام ١٩٦٧ .

(٩) ابن القطاع علي بن جعفر الصقلي المولد . والمصري الدار والوفاة . كان أحد ائمة اللغة والادب له عدة تصانيف وديوان شعر . توفى عام ٥١٥هـ . والمقصود بالجزيرة (صقلية) . وقد صورتها واهديت منها صورة للمجمع العلمي العراقي لمن يريد تحقيقها .

(١٠) نسبته الى نواج قرية بمصر . وهو شمس‌الدين محمد ابن حسن النواجي المتوفى ٨٥٩هـ .

(١١) سوس : كورة بالاهواز معرب (شوش) واقليم سوس :

١٦ ـ ديوان (ابن حجله) التلمساني(١٢) بخط الشاعر . رسم الخط مغربي . اسماه صاحبه ديوان (الصبابة) . وهو الشيخ شهاب‌الدين .

وفي آخره ما نصه : (كمل الديوان المبارك على يد كاتبه لنفسه ثم لمن اورثه بعده العبد الحقير الراجي عفو ربه احمد بن محمد السلاوي يوم الخميس سنة ستة عشر ومائتين والالف) .

١٧ ـ مجلد ضخم يحتوي على ثلاثة كتب :

الاول واسمه (نكتة الامثال) لأبي الربيع سليمان ابن موسى الكلاعي المتوفى امام (بلنسيه) في الجهاد عام ٦٣٤هـ .

والثاني (جهد النصيح ، وخط المنيح في مساجلة ابي العلاء المعري في خطبة الفصيح)(١٣) .

وهذا الكتاب عارض فيه الكلاعي(١٤) أبا العلاء . ومن هذه المعارضة نسخة مخطوطة بالدار الوطنية في تونس نقلت من مكتبة جامع (الزيتونة) .

اما الكتاب الثالث من هذا المجلد فهو جزء من (مظاهرة المسعى الجميل ومحاذرة المرعى الوبيل في معارضة ملقى السبيل) للحافظ محمد بن أبي عبدالله ابن أبي بكر الابار القضاعي البلنسي . كان هذا الجزء في جامع الزيتونة . ثم انتقل الى الدار الوطنية بتونس.

كما عارض كتاب (ملقى السبيل) ذو الوزارتين محمد بن مسعود بن ابي الخصال الغافقي الاندلسي ، وزير يوسف بن (تاشفين) سلطان المرابطين . وذو الوزارتين توفي (بشقوره) ٥١٩هـ .

ومن هذه المعارضة نسخة بمكتبة (الاسكوريال) . يقول عنها (الشنقيطي) : ولعمري ان هذه المعارضة . معارضة ابي عبدالله بن أبي الخصال (لملقى(١٥) السبيل) ان لم تفقه فليست بدونه .

١٨ ـ ديوان الشيخ حامد (الحكاك(١٦)) ناسخه سلام الحنفي. بخط مشرقي عام ١١٨٠هـ .

١٩ ـ (شرح مشكلات أبيات المتنبي) صنعة ابي الحسن علي ابن اسماعيل النحوي ، المعروف بابن (سيدَه) المرسي(١٧) .

يقع هذا الشرح في ١٢٦ صفحة ، بخط جيد جدا . نسخة محمد بن احمد الورغي عام ١١٧٦هـ . وهو من مكتبة حسن حسني عبدالوهاب . صورته واهديت منه صورة للمجمع العلمي العراقي رجاء ان ينبري له احد الهواة من الادباء فيحققه .

ان المنتبعين لبعث التراث العربي الاسلامي . والعاملين على احياء مخلفات السلف الفكري في تونس قلة قليلة . فالمحققون لمخطوطات الاقدمين بمختلف الاتجاهات يعدون على الاصابع . والتبعة في الواقع لا تقع على عاتق المثقفين والمعنيين بتلك الدراسات فحسب . وانما يشترك في هذا النقص جهاز الحكم الوطني ، اذ هو لم يهيء لهم الفرص والامكانيات للبحث والنشر . كما لم يعن العناية الكافية والمطلوبة لبعث تراث السالفين . لان مثل هذا يحتاج الى جهود وتوجيه ، وبذل وعطاء حتى تخلق طبقة تنشر ثقافة الماضين وفكر الاقدمين المكدس بين ظهرانيهم في البلاد العربية والاسلامية بله المكتبات الاوروبية التي استحوذت عليها الاجانب بشتى الحيل من مراكزها في البلاد العربية والاسلامية .

والثقافة لا تزدهر في بلد الا ان نجعلها لبنة فوق لبنة . وما لم نبني الحاضر الثقافي على الماضي لا نقف على قدم ثابتة راسخة وما لم نكن كذلك فسيرين جمود على الافكار وتكون فجوة واسعة المدى عند شبابنا المثقف ثقافة عصرية ـ كما هو الحال عند كثير منهم ـ لا يعون ثقافة الماضين الا النزر القليل منهم . بل ان بعض من وعى الدراسات الاجنبية قد يهزأ بمؤلفات السلف الماضي .

ان تونس لها صدى عميق في الثقافات الاسلامية . وان جامع الزيتونة والقيروان وسوسة وغيرها من المراكز الثقافية كانت مهبط الفكر العربي الاسلامي فقد نزح اليها جمع غفير من علماء الاندلس وادبائها علاوة على ما كانت عليه من اشعاع فكري في هذه المجالات ولكن تونس الآن يطالب مثقفوها بتعريب الدراسة . فهي مزدوجة اللغة والمناهج . هذا من جهة ومن جهة اخرى فان المطابع العربية فيها قلة قليلة . فطبع الملزمة الواحدة يكلف سبعين دينارا من غير تهويل او مبالغة . اذن كيف نرجو منها بعث ماضيها الثقافي وهي على ما هي عليه ما لم يدعمها الحكم الوطني بالمال والترغيب .

كان هذا الحديث بمضونه بيني وبين المرحوم العلامة الشيخ محمد طاهر بن عاشور في بيته عند زيارتي له عام ١٩٧٢ .

واقع‌بالمغرب . و (سوسة) مصيف جميل (على ما رأيته) يربض على البحر الابيض المتوسط في تونس .

والذين ينسبون لهذه كثرة كثيرة من العلماء والشعراء . منهم احمد بن يحيى الكوفي وقد سكن (سر من رأى) أخيرا . ومنهم السوسي شاعر أهل البيت كان أكثر شعره في الرسول وأولاده . ومنهم صاحب هذا الديوان .

(١٢) ابن أبي حجله ولد (بتلمسان) وكان عالما بفنون الادب . رحل الى (دمشق) ثم انتقل الى القاهرة فولي مشيخة الصوفية . ثم سافر الى الحج توفي عام ٧٧٦هـ . ومن آثاره (الادب الفض) ، و (اطيب الطيب) و (منطق الطير) و (ديوان الصبابة) .

(١٣) خطبة الفصيح من انشاء أبي العلاء المعري في تحميد الله. مقداره (١٥) كراسه .

(١٤) وللكلاعي ايضا كتاب اسماه (مفاوضة القلب العليل ، ومنابذة الامل الطويل بطريقة المعري في ملقى السبيل) .

وهذا الكتاب : (ملقى السبيل) لابي العلاء مطبوع اما كتاب (الكلاعي) فهو غير مطبوع حسب تتبعي واحفائي .

(١٥) ضبطت كلمة (ملتقى) بضم الميم وفتح اللام وتشديد القاف المفتوحة . و (ملقى السبيل) يقع في أربع كراريس .

(١٦) لم أجد لهذا الديوان ذكرا في المراجع التي بين يدي . كما انه غير مطبوع حسب تتبعي .

(١٧) ابن سيدَه بكسر السين وفتح الدال من الاندلس . كان اماما في اللغة . وهو صاحب كتاب (المخصص) و (المحكم) في اللغه . وكان ضريرا كما كان ابوه كذلك . والمرسي بضم الميم نسبة الى (مرسيه) مدينة في شرقي الاندلس . توفى عام ٤٥٨هـ حسب ذكره في الكنى والالقاب . ومن هذه المخطوطة نسخة في القاهرة واخرى في مكتبة (المجلس) بطهران .

ومع هذا النقص فان في تونس من يعنى عناية فائقة بالثقافة العربية والاسلامية وبعث تراث الماضين امثال الباحث الجليل السيد محمد العروسي المطوي ، والاستاذ الكبير السيد محمد المرزوقي ، والعلامة الجيلاني بن الحاج يحيى . كما اجتمعت بشاب نشط حريص كل الحرص بان تلحق تونس البلاد العربية في هذا المجال الثقافي ذلك هو الاستاذ حسين ماجول الذي يقوم بادارة قسم المخطوطات في دار الكتب الوطنية . كما زارني الاستاذ عبدالحفيظ منصور الذي طبع في بيروت فهرست مخطوطات المكتبة الوطنية في تونس . ومع انه شاب في مقتبل العمر فهو ملم الماما كافيا بالمخطوطات ومضانها .

كما التقيت بالشاب النشط هو الاستاذ ابو القاسم كرو الذي يرأس لجنة الثقافة القومية في تونس عدة مرات وانا على علم مسبق بجده ونشاطه الفكري مذ كان طالبا بكلية دار المعلمين العالية ببغداد .

ان تونس بدات بفضل شبانها المتطلعين للثقافة تتحفز لبعث تراثها الادبي والعلمي ولكن المعوقات كثيرة .

الجزائر

كان اول عمل قمت به في الجزائر زيارة الدكتور احمد طالب الابراهيمي(١) : وزير الثقافة والاعلام عن طريق سفارتنا . وكنت على علم مسبق بان الوزير الابراهيمي من شباب الجزائر المثقفين ثقافة قديمة وحديثه . وانه من المعنيين بالدراسات الاسلامية . وانه من سلالة علمية ترى لثقافة الماضين فضلا كبيرا على الجزائر السياسي .

هذا من جهة . ومن جهة اخرى فاني على علم مسبق ايضا من أن الاستعمار الفرنسي قد سلب من الجزائر كل ما فيها من وثائق علمية وادبية بل وكل ما يمس الثقافة العربية الاسلامية. فقد نهب العسكريون والمدنيون الكتب الثمينة ، والنوادر المخطوطة فلم يبق فيها غير النزر من الكتب الفقهية وماشاكلها .

وعند المقابلة تطرق الوزير الابراهيمي في حديثه عن المخطوطات ووجوب العناية بها لانها ركيزة قويمة لبعث الفكر العربي الاسلامي . ثم قال :

ان في الجزائر مخطوطات لازالت مختفية في خبايا الخزائن الخاصة في داخل البلد وخارجها . تسجلها الفهارس ويعرفها ارباب الاختصاص والدراية . كما اننا لا نعلم مكان بعضها بالضبط .

منها في مكتبات خاصة كمكتبة (الهامل) قرب (بوسعادة) ومكتبة (الزاوية) الرحمانية (بطولقه) . ومكتبة الشيخ الهاجر في (وهران) . وما بقي من خزائن القاضي (شعيب) المعصوم في (تلمسان) . وذخائر المخطوطات المحفوظة عند العلماء في وادي (ميزاب)(٢) .

ومن هذه المخطوطات قسم تقتنيها عائلات عرفت اسلافها بالعلم والمعرفة . ولازالت عندهم محاظين عليها تبركا ، ووفاءا لذكرى آبائهم وأجدادهم . وهم يبخلون حتى في رؤيتها بله تصويرها مع العلم ان اغلب مقتنيها لا يقدرون قيمتها بل ولا يعرفون مضامينها . فقد يكون من بينها من أهم الكتب .

كما توجد مخطوطات جزائرية في مكتبات اسبانيا وايطاليا والمانيا وهولنده وبريطانيا . فقد نقلت هذه الوثائق حين غزا الغرب الجزائر في القرن التاسع عشر . وهذه الوثائق قد اخذت غصبا ممن يمتلكونها . فالامير عبدالقادر تاثر كثيرا حين علم باستيلاء الاجانب على مكتبته الثرية بالوثائق النادرة

كذلك صادرت السلطة الفرنسية مكتبة الشيخ (الحداد) وبخاصة المخطوطات منها لان الشيخ شارك في الثورة مشاركة فعلية . وعلى اثر هزيمة الجزائر صادرت فرنسا جميع المخطوطات

ويتابع الوزير حديثه فيقول : وآخر اختلاس للمخطوطات الجزائرية هو نقلها جميعا ـ بما فيها مكتبة جامعة الجزائر ـ الى فرنسا . وقد ثبت لنا بان هذه المخطوطات لم تحرق ـ كما يدعي المستعمرون حين اقدموا على حرقها ـ فقد احرقوا المطبوع منها . اما الوثائق المخطوطة فقد نقلوها الى فرنسا في السابع من ايلول عام ١٩٦١ ولم يظهر اثرها حتى الآن .

كما ان المساجد لم تسلم من السلب والنهب من تلك الفئة التي لا تحترم حتى المواطن المقدسة . فقد كان لكل مسجد خزانة للكتب تضم بعض النوادر المخطوطة .

وتحتفظ الآن بعض الاسر الفرنسية بمخطوطات كان رجالها موظفين مدنيين وعسكريين في الجزائر على عهد الاحتلال العسكري .

وفي الجزائر الآن بعض الوثائق المهمة بالنسبة لنا لم تفر المستعمرين في الفقه والفتاوى والحسبه . واخرى في الطرق الدينية .

ثم تابع كلامه بانفعال فقال : حتى هذه اللحظة التي احدثك فيها ان الطالب الجزائري الذي يدرس في فرنسا او في بلد آخر في اوروبا لا يجوز له الاطلاع على الوثائق والمستندات الجزائرية المحفوظة في مكتبات فرنسا للمراجعة والاطلاع عليها من أجل بحث في تحضير رسالة علمية أو اطروحة مالم يصطحب معه طالبا أجنبيا ايطاليا أو غير ايطالي ليطلبها عنه حتى يتمكن من مراجعتها والاطلاع عليها .

هذا الحديث الممتع المؤلم ادلى به وزير الثقافة والاعلام الدكتور احمد الابراهيمي بمكتبه الرسمي عند زيارتي له وبصحبتي الملحق الثقافي في السفارة العراقية عام ١٩٧٢م .

---

(١) من هذه العائلة عمه الشيخ محمد بشير الابراهيمي الذي صارع الاستعمار الفرنسي طويلا وقد كان رئيس جمعية العلماء التي لعبت دورا بارزا في طرد الفرنسيين من الجزائر . زار العراق مرتين في الخمسينات . توفى عام ١٩٦٥م .

(٢) تعرض (الخوارج) لمحن قضت على معظم كتبهم . فالفاطميون احرقوا دواوينهم ومكتباتهم في المغرب بما تحوي من الكتب المذهبية . فالمكتبة (المعصومية) بتاهرت أحرقها أبو عبدالله الفاطمي . وكانت زخرت بآلاف المدونات ولم يسلم منها سوى اليسير من تراث (الاباضية) . والخوارج المقيمون الآن (بليبا) حريصون أشد الحرص على عدم اطلاع أحد على مالديهم من كتب المذهب . وابن (النديم) يعتبر ان كتب الخوارج في عصره مستورة ولا سبيل لمعرفتها . ولازالت المشكلة قائمة حتى الآن .

وقد فشلت جهود المستشرقين وبعض مؤرخي العرب للوقوف على كتب الخوارج الخاصة . ولازالت حبيسة عند جماعاتهم التي تعيش في شبه عزلة في جبل (نفوسه) بليبيا . ووادي (ميزاب) في الجزائر . الحركات السرية في الاسلام للدكتور محمود اسماعيل ص ٢٦ .

من هذا وغير هذا اتضح لي ان الجزائر لا تكون محط رحلي للتنقيب عن الوثائق المخطوطه مادام المستعمرون قد نهبوا أهم الكتب والمخطوطات منها حسب حديث الوزير الذي ايد علمي السابق عنها .

بعد هذا توجهت شطر المكتبة العامة في الجزائر فقابلت مديرها الذي كان على موعد قد حددته السفارة العراقية فادخلت على السيد محمود بوعياد مدير المكتبة بعد اجراآت طويلة متكلفة لم أجدها عند مقابلتي الوزير في اليوم السابق .

قد يكون هذا الشاب دربا ومثقفا في جوانب لم تكن من اختصاصي الا انني وجدته بعد حديثي معه غير ملم في معرفة المخطوطات العربية الماما كافيا . فكان حديثه يدور حول المثقفين في الجزائر . وانهم ينقسمون الى فئتين حول احياء التراث وبوجه خاص المخطوطات منها .

ففئة تغالي فيها ، وتخفي التسآل عنها ، لاحيائها وبعثها مهما كان لونها الثقافي لكي لا تتخلف الجزائر عن ركب الامم العريقة في هذا المضمار الحضاري .

اما الفئة الاخرى فتدعي بأن علماء الجزائر لم يتركوا وام يخلفوا من الوثائق الا العدد القليل . وان مؤلفاتهم في التاريخ والادب والعلوم الدينية من فقه وحديث وتفسير فهي معروفة ومدونة في الفهارس فلا داعي للبحث عنها . كما أن بعضها بل الكثير منها لا يتناسب والعصر الذي نعيشه .

ثم تطرق في حديثه الطويل عن الكتب المطبوعة في أوائل هذا القرن والتي قام بطبعها علماء من الفرنسيين والاسبان والايطاليين . فهذه الكتب قد اصبحت بحكم المخطوطات . فلا وجود لها في الجزائر . لانهم كانوا يطبعون منها العدد القليل يوزع على الدوائر الاستعمارية التي عهد اليها حكم الجزائر والتصرف بشؤونه السياسية والفكرية لكي يدرسوا أوضاع البلاد وعقائدها حتى يتسنى لهم التسلط عليه واستغلاله ونهب خيراته . فمن تلك الكتب المطبوعة :

١ ـ (بغية الوراد في اخبار بني عبد الواد(١)) ليحيى بن خلدون فقد طبع عام ١٩٠٣م مع ترجمة فرنسية في ثلاثة مجلدات قام بطبعها (الفوث بن يعلى) الجزائري . والمستشرق الفرنسي (الفريد بل) . والمؤلف هو أخ لعبدالرحمن بن خلدون المؤرخ المشهور .

٢ ـ (السلوك في سياسة الملوك) لابن حمو موسى طبع عام ١٨٨٠م .

٣ ـ (نزهة الانظار في فضل علم التاريخ والاخبار) المعروف بالرحلة (الورتلانية) للحسن بن محمد الورتلاني الصوفي . فقيه مالكي ، ومؤرخ مغربي من بني ورتلان . توفي عام ١١٩٢ وقد طبع كتابه هذا عام ١٩٠٠م .

٤ ـ (رحلة اللبيب في اخبار الرحلة الى الحبيب) لاحمد بن عمار . طبع عام ١٩٠٢م .

٥ ـ (تاريخ بني عبيدالله) لاحمد بن حماد الصنهاجي . نشره المستشرق (فوردين) عام ١٩٢٩م .

ثم قال متابعا كلامه قائلا : هذه الكتب وغيرها لا وجود لها في الجزائر فهي بحكم المخطوطة . كما انه توجد مخطوطات في مكتبات (اسطنبول) باللغتين : العربية والتركية تخص الجزائر مذ كانت تابعة لها سياسيا على ما تثبتها الفهارس في هذه المكتبات .

بعد هذا الحديث الطويل الذي كلفني بعض التسجيل لنقاطه الرئيسة علمت من بعض اساتذة الجامعة بانه قد نشر في احدى المجلات التابعة لوزارة الثقافة والاعلام .

في المكتبة الوطنية الآن في الجزائر بعض المخطوطات الثانوية الا ان فهرست هذه المكتبة ينطق عن كثرة المخطوطات التي كانت تحتويها . فالمستشرق (فانيان) كان قد اعد أول فهرست لها . وقد ذكر اسماء تلك المخطوطات وارقامها . وقال عنها بانها ضاعت . غير انه لم يذكر متى فقدت ، ومن الذي ملكها . وذكر بين تلك المخطوطات اسماء مئتي كتاب من بينها سجلات لقرارات الديات والعقود وبعض الرسائل .

المغرب

انشد في ذهني صورة مكبرة عن المخطوطات في خزائن المغرب بحيث كنت واثقا باني ساحصل على وفرة من المخطوطات النادرة من هذا المنجم . وذلك لما كنت اسمعه واقرؤه عن وجود مخطوطات نادرة وبخطوط مؤلفيها . وبخاصة مكتبة (القرويين) الشهيرة . والتي تعد من أقدم المكتبات في البلاد الاسلامية .

كما ان الصحف في الايام الاخيرة اطنبت في ذكر مكتبة ضخمة وثرية في نوادر المخطوطات قد عثر عليها في ردهة من ردهات القصور الملكية . فقد كان احد امراء المغرب المعنيين بالثقافة قد أخفى هذه المكتبة عن أعين الاجانب مخافة الاستيلاء عليها ونهبها فبنى حاجزا اخفاها عن الانظار الى ان عثر عليها بطريق الصدفة فامر الملك الحسن الثاني بتشكيل لجان من اهل الخبرة والدراية لوضع فهارس تشمل جميع موضوعاتها(١) .

كل هذا كنت على علم سابق به فمن هنا كانت آمالي واسعة وكبيرة في الحصول على مخطوطات تخص موضوعي الذي جئت من أجله . كما ان السفارة العراقية في (الرباط) كانت على سابق علم بمهمتي عن طريق وزارة الخارجية لتذليل العقبات التي قد تعترض طريقي . وفعلا اتصلت السفارة بوزارة الاعلام وحددت لي موعدا مع الاستاذ (احمد اقلال) أحد موظفيها البارزين وبعد اللقاء معه امر مدير الخزانات والوثائق الاستاذ (الوكيلي) بتحديد مواعيد لزيارتي المكتبات التي تعنى بالمخطوطات .

وبعد جهد ومشقة ولجت الخزانة الملكية في (المشوار) فاستقبلني رجال ممتعون المفروض بانهم من أهل الخبرة والدراية في عالم الكتب والمخطوطات منها على الاخص فطلبت (فهرست)

---

(١) توجد من هذا الكتاب نسخة في مكتبة الآثار العراقية ببغداد .

(١) في اسبانيا وفي قصر (الاسكوريال) مكتبة مغربية كانت ملكا لمولانا (زيدان) أحد امراء المغرب ففي عام ١٦١٢م أسرت السفن الاسبانية مركبا كان محملا بنوادر المخطوطات العربية والتحف الثمينة النادرة . فيه ثلاثة آلاف من الكتب المخطوطة . منها العدد الوافر بخط مؤلفيها وعليها تواقيع مولانا (زيدان) فحملت هذه الكتب واودعت قصر (الاسكوريال) الا ان محنة اصابتها عام ١٦٧١ فقد شبت النار في هذا القصر وأتت على التحف ولم يبق من المكتبة غير الفي مخطوطة هي لازالت في القصر يشرف عليها الآباء (الاوغسطينون) . زرت هذه المكتبة عام ١٩٦٧ وصورت منها عدة كتب هي الآن في المجمع العراقي لمن يريد تحقيقها .

المكتبة فاحضرت لي (كراريس) لا يهتدي بها الباحث بحجة ان المكتبة بعد لم تفهرس . ووجدت القوامين عليها يضنون حتى بالجواب عن المخطوطات هذا اذا احسنت الظن بدرايتهم وخبرتهم .

لقد سبقتني بعثة الجامعة العربية لتصوير بعض ما تريده من هذه المكتبة فوجدت امامها العراقيل والمصاعب من المشرفين عليها ولم يطلعوها على اي (فهرست) ومنعوها من تصوير اية مخطوطة وبعد اخذ ورد ووساطة وصلت الى الملك الحسن اذنوا للبعثة ان تصور المخطوطات التي ترغب بتصويرها . الا انهم اشترطوا على بعثة الجامعة بان لا يحقق كتاب من هذه الكتب المصورة ولا ينشر الا بعد الاذن من ادارة هذه المكتبة .

ان اغلب ما في هذه المكتبة من المخطوطات مكرر او مطبوع ـ على ما حدثني احد اساتذة المغرب ـ كما ان كثيرا من مواضيعها ليست بذات اهمية اذ هي مطروقة كثيرا فكتب الحديث والتفسير تأخذ حيزا كبيرا منها .

وليس معنى هذا باني انكر وجود مخطوطات مهمة فيها اذ لا علم لي سوى السماع . فقد يكون بين مخزونها وحشدها الهائل من تحف المخطوطات ونوادر الوثائق . وقد يكون من بينها بخطوط مؤلفيها الا ان المشرفين على هذه المكتبة ـ كما قلت ـ لم يكونوا بمستوى تقدير اهل الخبرة والدراية في مجال المخطوطات .

لقد رايت بام عيني اهمالا لا يغتفر من المشرفين عليها . اذ قد رأيت قسما كبيرا جدا من هذه الكتب تحت رحمة الطبيعة . فهي معرضة لكل طارىء من طوارئها من شمس ومطر فنبهتهم على هذا الاهمال ، وانكرت عليهم وضع هذه الكتب في محل مكشوف مع انها مكتبة في بلاط ملكي فاعتذروا باعذار واهية .

زرت هذه الخزانة مرتين فلم اجد من القوامين عليها مساعدة تستوجب تكرار الزيارة فلم اعد اليها مادامت (الفهرسة) غير كاملة على حد تعبيرهم .

وقد اطلعت في اول زيارة على جزاين من كتاب (الاغاني) : السادس والثامن مخطوطين بزخرفة هي في غاية الاتقان والبراعة. وفي تذهيب في ارقى الابداع مع دلالة القدم عليهما لتسلط الارضة على كلا الجزاين .

كما وجدت شرح ديوان المتنبي (للافليلي)(١) فرغ منه ناسخه عام ٩٨٠هـ .

و (انيس العاشق ، ونزهة الشائق) .

وشرح قصيدة (روضة السلوان) بخط المؤلف كما هو مدون عليها .

و (تحفة العروس ، ومضحك العبوس) تأليف أبي عبدالله ابن احمد التيجاني .

و (الصاهل والشاجح(٢)) لابي العلاء المعري . يتكلم فيه على لسان فرس وبغل . مقداره اربعون (كراسة) . صنعه لابي شجاع فاتك بن عبدالله الرومي والي حلب من قبل المصريين الذي قتل عام ٤١٣هـ . وهذا الكتاب بخط يحيى بن ابراهيم . نسخه للامير(٣) أبي زكريا بن حفص عام ٤١٣هـ .

و (تحفة الزمان ، ونزهة الخلان) للتنوخي(٤) . بخط مشرقي .

و (غرر الخصائص الواضحة) . تأليف محمد بن ابراهيم ابن يحيى الانصاري . المصري . المعروف (بالوطواط) وهذا غير رشيدالدين الوطواط .

و (بغية المآنس ، وبهجة المجالس) لمؤلفه : سعيد بن ابراهيم بن أبي جعفر .

ان اقدم مخطوطة ـ على ما قيل لي ولم أرها ـ تاريخ الاندلس للخرشاني . كتبت عام ٤٨٧هـ .

وبعد أن لم يكن لي مجال للاطلاع في هذه المكتبة قصدت مدينة (فاس) الشهيرة بمكتبتها وجامعها (القرويين) .

والمكتبة لازالت في المدينة القديمة . والولوج اليها امر شاق للغاية . فهي تقع في منحدر بعيد المدى ، سحيق الغور . ضيق المسالك قد لا يسلك في بعض دروبه الا شخص واحد . ثم هي لا يمكن ان تلجها اية وساطة آلية . ومهما كان الامر فلابد من الوصول اليها ، والاطلاع على خزانتها . وبعد الجهد والتسآل عن دروبها وصلت اليها فوجدت الباب مغلقا . فحين دخلت واستقر بي المقام طلبت (فهرست) المكتبة ففوجئت من المتكلم بانه لا يحسن اللغة العربية ، وانه يجيد اللغة الفرنسية. اما المشرفون على ادارة المكتبة فهم في اجازة . فبقيت حائرا . وقد انقذ موقفي دخول شيخ علينا يبدو عليه من أهل العلم فاطلعني على (الفهرست) الموقت .

ان هذه المكتبة مرتبطة الآن بوزارة الاعلام . وكانت محبسة على (القرويين) . وقد اسسها (أبو العينان المريني) عام ٧٥٠هـ وفيها على مايقال تسعة آلاف من المخطوطات . كما ان أقدم كتاب فيها سيرة (ابراهيم الغزاري) المتوفى عام ١٨٦هـ .

والكتاب يشتمل على خمسة اجزاء . والجزء الثاني منه مكتوب على رق . وقد وقع الفراغ من نسخه في ربيع الثاني عام ٢٧٠هـ . وعلى هذا الجزء خط الامام خلف بن عبدالملك بن

---

(١) الافليلي او الافليلي : ابو القاسم ابراهيم بن محمد بن زكريا . ينتهي نسبه الى سعد بن أبي وقاص . عالم لغوي اندلسي قرطبي . ولي الوزارة للمستكفي بالله بالاندلس . توفي عام ٤٤٠هـ . والافليلي نسبة الى (افليل) قرية من قرى الشام .

(٢) وضع الوزير ابو عبدالله بن عبدالغفور الاندلسي رسالة رسالة اسماها (الساجعة) حذا فيها حذو أبي العلاء في الصاهل والشاجع .

(٣) ابو زكريا يحيى بن عبدالواحد الحفصي . كان ابوه نائبا لآل عبد المؤمن . فلما توفي والده تغلب على أفريقيا واستقل بها . كان موصوفا بالعدل . يقضي اوقات فراغه في مطارحة العلماء والادباء . وكان شاعرا . وله اهدى ابن (الابار) كتابه (الحلة السمراء) .

(٤) تنوخ : اسم لعدة قبائل . اجتمعت بالبحرين وتحالفت . والتنوخي : لقب لعلي بن أبي الفهم البغدادي . المتوفى بالبصرة عام ٣٤٣هـ صاحب المهلبي وسيف الدولة . كان قاضيا بالبصرة وعالما بالفقه والنجوم والشعر . ويطلق على ابنه (المحسن) صاحب كتاب (نشوار المحاضرة) الذي حققه الاستاذ السيد عبود الشالجي واخرجه بثمانية أجزاء . طبع في بيروت . وهو الآن يسعى لاخراج ، الفرج بعد الشدة) للتنوخي أيضا . ويطلق على ولده (علي) بن المحسن . تلميذ المرتضى علم الهدى . تولى القضاء بالمدائن توفى عام ٤٤٧هـ . ويطلق على أبي جعفر التنوخي . احمد بن اسحاق بن البهلول . أصله من الانبار توفى عام ٣١٨هـ .

بشكوال . صاحب كتاب (الصلة) المتوفى عام ٥٧٨هـ . كما عليه خط مالكه عباس بن اصبغ المتوفى عام ٣٨٦هـ .

والكتاب يبحث في قانون الحرب ، بين المسلمين ومن عاداهم . والجزء الاول منه مبتور . وهو من رواية محمد بن وضاح عن ابي مروان المصيصي(١) . واغلب مواضيع هذا الكتاب في الفقه والفتاوى والتفسير .

وفي هذه المكتبة وجدت كتاب (البيان والتحصيل في التوحيد والتعليل) لابي الوليد(٢) محمد بن احمد بن محمد المتوفى عام ٥٢٠هـ . الفقيه المالكي . وهو جد الفيلسوف بن رشد . والكتاب في حجم كبير . وقع الفراغ من نسخه عام ٧٢٠ بخط احمد بن علي الصنهاجي .

وفيها أيضا عثرت على كتاب (حلية المحاضرة) في صناعة الشعر لأبي علي محمد بن الحسن بن المظفر . الكاتب اللغوي البغدادي المتوفى عام ٣٨٨هـ .

والكتاب منسوخ على الرق وكان الفراغ من نسخه عام ٩٩٠هـ .

وقد وجدت في مكتبة (القرويين) مخطوطة اسماها صاحبها (المنظومة) وموضوعها علم الطب لابن (طفيل) المتوفى عام ٥٨١هـ . وهي نسخة فريدة في العالم . لم يذكرها جل من ترجم (لابن طفيل) . كما هو مدون على اول ورقة منها هذا المعنى من قبل احمد بن منصور السعدي .

كما رايت كتاب (مختصر العين) للزبيدي . منسوخا على رق عام ٥١٨هـ .

وشذرات من كتاب (التاج) . وتاريخ ابن خلدون وعليه توقيعه .

وقد اردت تصوير بعض المخطوطات منها ، فكان الجواب : لا وجود لمثل هذه الالة المصورة في (فاس) . ولعل هذا الجواب كان من باب العذر . فحزمت أمتعتي وخرجت وملئي أسف على هذا الوضع المؤلم .

وبعد جهد ومشقة ، ومسالك ضيقة ، ودروب وعره خرج بي الرائد الى (فاس) الجديدة فتنفست الصعداء بعد خيبة امل(*) .

---

(١) مصيصه : قرية على الشاطيء من ثغور الشام .

(٢) اختلط على القمي في الكنى (والالقاب) بين ابن رشد وجده أبي الوليد (محمد بن احمد) فنسب لهذا كتاب (تهافت الفلاسفة) مع انه لحفيده .

(*) كان الاستاذ الفاضل عبدالكريم الدجيلي قد خصّ « المورد » بهذا المقال القيم قبل أن يتوفاه الله مؤخرا . ولا يسع هيئة تحرير « المورد » بهذه المناسبة الاليمة الا أن تعلن اسفها الشديد على رحيل المربي الفاضل والاديب الناقد الذي تتلمذ عليه الكثيرون . وقد توفاه الله في يوم الخميس ١٠/١٠/١٩٧٤ . (المورد) .